

## خطى معجمية دلالية رائدة: أساس البلاغة للزمخشري نموذجاً

إعداد:

**إبراهيم عثمان**

قسم اللغة العربيّة، جامعة عثمان بن فودي، صكتو.

[abuimam2013@gmail.com](mailto:abuimam2013@gmail.com)

+2348033823255

المقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن والاه. أما بعد:

لقد سطع الدرس المعجمي بأفاق دلالية جديدة ومستويات معنوية رائدة على نحو متطور عما كانت عليه المعجمات في القرون الأولى للهجرة، وذلك حينما أفاد من البحث البلاغي في بعض روافده الأسلوبية الأصيلة، وإحالاته السياقية المتعددة، وتحليلاته البيانية المصورة، إذ اعتمد هذا الدرس في إفادته على موارد متفردة وعالية وسديدة بدءاً بالموارد القرآنية نصوصاً وشواهد، ثم الحديث النبوي الشريف وصولاً إلى منتخبات من كلام العرب شعراً ونثراً.

وهم بذلك قد جعلوا من هذه المعجمات ذخيرة تراثية فذة، تجمع بين الأصالة الدلالية الموثقة، والسمو الأسلوبي المتميز. وقد تمثل ذلك جلياً عند علماء نبغوا في القرآن ومن هؤلاء الجهابذة: الزمخشري صاحب معجم "أساس البلاغة".

وهذه المقالة عبارة عن أنوار ساطعة تكشف عن لبنات متينة وضعها القدامى في تأسيس قواعد علم الدلالة، وتتخذ المقالة معجم أساس البلاغة للزمخشري محوراً لهذه الدراسة.

وستسير خطوات المقالة في مطالب ثلاثة على النحو التالي:

## المطلب الأول: التعريف بصاحب المعجم:

صاحب هذا المعجم هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي، الزمخشري، ولد في رجب عام ٤٦٧ هـ بزبخشر، وهي من قرى خوارزم وإليها نسب، وقد ورد بغداد غير مرة وأخذ الأدب عن أبي الحسن بن المظفر النيسابوري وأبي مضر محمود بن جرير الضبي الأصبهاني، وسمع من أبي سعد الشقاني، وشيخ الإسلام أبي منصور نصر الحارثي وغيرهم<sup>(١)</sup>.

سافر الزمخشري إلى مكة وجاور بها زمناً فقليل له: جار الله، وكانت إحدى رحليه مقطوعة ويمشي في رجل من خشب، وكان إذا مشى ألقى عليها ثيابه الطوال فيظن من يراه أنه أعرج وتوفي سنة ٥٣٨ هـ<sup>(٢)</sup>.

كان الزمخشري شديد الذكاء متوقد الذهن جيد القريحة، إماماً كبيراً في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان، في عصره وما بعد عصره، فقد ترك تصانيف كثيرة في العلوم الدينية، واللغة والأدب والنحو والعروض وغيرها يربو عددها على الثلاثين منها: "الكشاف" في تفسير القرآن، وهو كتاب لم يصنف قبله مثله، وعليه قالوا نقلاً عنه: لولا الكوسج - الذي لحيته على ذقته لا على العارضين - لأعرج لبقى القرآن بكراً. ومنها "أطواق الذهب في المواعظ والأدب"، و"الرائض في علم الفرائض"، و"الأنموذج في النحو"، و"القسطاس في العروض"<sup>(٣)</sup>، ومنها "أساس البلاغة"؛ المعجم اللغوي الذي سيكون محور هذه المقالة على نحو من الإيجاز والبيان.

ولا شك أن الزمخشري في دائرته المعرفية هذه وهو الأديب المتذوق والعالم المفسر والمتضلع بالعقيدة والمنطق والكلام ما منحه زحماً أو دافعاً في المجال المعجمي فضلاً عن أحاطته بالمصادر التي سبقته أو التي عاصرتة ولاسيما فكره

الاعتزالي المتوقد الذي يؤدي إلى إنضاج سريع للفكر لما فيها من أصول كلامية ومنطقية جعلته أداة خصبة للنتاج المتألق.

### المطلب الثاني: معجم أساس البلاغة موضوعه ومنهجه:

ومعجم "أساس البلاغة" يعد الحلقة المهمة من الحلقات الأولى في معجمات اللغة التي تقوم على طريقة الحرف الأول والثاني في تسلسل كلماتها، وهو يختلف عن غيره من المعجمات إذ لم يقصد واضعه إلى جمع واستيعاب الألفاظ العربية ليعين معانيها وإنما قصد إلى بيان ما في جديد اللغة من البلاغة، ومدلول البلاغة عنده ليس المعنى الاصطلاحي المعروف لعلم البلاغة من بيان وبديع ومعان - التي لم تتبلور آنذاك بشكل جلي - فاختار له هذا العنوان المناسب لغرضه وقد صرح بذلك في مقدمته القصيرة.

وانفرد الزمخشري في منهج كتابه حيث لم يورد الألفاظ المفردة وما يقابلها من المعاني كما كان يفعل أصحاب المعجمات الأخر، وإنما كان يورد الألفاظ ومحاسنها من خلال العبارات الجميلة البليغة ليوفر على القارئ اقتناص الشواهد وإيراد الأمثلة، فهو بذلك معني بالألفاظ المركبة لا اللفظة المفردة ولهذا السبب لم يعده بعض الباحثين معجماً لاستعماله الألفاظ في السياقات لإبراز دلالاتها المختلفة بل جعلوه على نطاق الأسلوب والنظم؛ إذ هو إلى علم الدلالة أقرب منه إلى صناعة المعاجم، وهذا منحى فريد في استعمال الألفاظ ودلالاتها إذ يمكن في تفعيل اللفظة المفردة داخل المجموع النبوي<sup>(٣)</sup>.

## المطلب الثالث: الدراسة التطبيقية التحليلية

إن من خصائص هذا الكتاب: تخير ما وقع في عبارات المبدعين وانطوى تحت استعمالات المفلقين، أو ما جاز وقوعه فيها وانطواؤه تحتها من التراكيب التي تملح وتحسن .

ومن الخصائص أنه يعرض أسلوبه بعد الاستقراء الكلي فليس هناك حوشي أو غريب وإنما ما تأنسه الطباع وتستلطفه الأسماع وفي هذا الانتخاب يقف موقف الناقد المتبصر في دروب اللغة وآفاقها.

ومن هذه الخصائص التوقيف على مناهج التركيب والتأليف وتعريف مدارج الترتيب والتصنيف بسوق الكلمات متناسقة لا مرسله بددا ومتناظمة لا طرائق قددا.. إذن مصادره تختلف عن مصادر معجمات اللغة، فهي مستمدة من كل فصيح وبلغ في اللغة وما سمع من الأعراب في البوادي ومن الخطباء في النوادي وما تحدث به الناس في بيئاتهم الخاصة وما تناشده الشعراء بين قبائلهم مع ما في بطون الكتب من روائع الألفاظ وجوامع الكلمات.

فعند التحليل مثلاً يلاحظ ما أورده في مادة (عبأ)

عبأت الطيب: إذا عملته وهيأته، وعبأته. وعبأ الخيل وعبأها وكذلك كل شيء وهو حمال أعباء، والعبء: الحمل الثقيل، قال تأبط شرا:

قذف العبء علي وولي \* أنا بالعبء له مستقل

وما أعبأ به: ﴿قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾<sup>(٥)</sup> (سورة الفرقان: ٧٧).

ومن هذه الخصائص التي ذكرها تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح بإفراد المجاز عن الحقيقة والكتابة عن التصريح.. من ذلك قوله في مادة (أبد).

لا أفعله أبد الآباد، وأبد الأبيد، وأبد الآبدين، وتقول: رزقك الله عمرا طويل الآباد بعيد الآماد. وأبدت الدواب وتأبدت: توحشت، وهي أوابد ومتأبدات، وفرس قيد الأوابد وهي نفر الوحوش وقد تأبد المنزل: سكنته الأوابد، وتأبد فلان: توحش، وطيور أوابد خلاف القواطع.

ومن المجاز: فلان مولع بأوابد الشعر وهي غرائبه، وبأوابد الشعر وهي التي لا تشاكل جودة، قال الفرزدق:

لن تدركوا كرمي بلؤم أبيكم \* وأوابدي بتنخل الأشعار<sup>(٦)</sup>

أو كقوله في باب: (ترس)

رجل تارس وتراس: ذو ترس، تقول: لا يستوي الراجل والفارس والأكشف والتارس.. ومن المجاز: تسترث بك من المحدثان وترسث من نبال الزمان، وهو مترسة لك، وأخذت إبلي سلاحها وترسث بترستها إذا سمنت وحسنت، ومنعت بذلك صاحبها من العقر، وغاب ترس الشمس، وواجهنا ترسا من الأرض وهو القاع الأملس المستدير، قال ابن ميادة:

سفين تراب الأرض حتى أبدنه \* وواجهن ترسا من متون صحاري<sup>(٧)</sup>

ومما تقدم، فقد تجلت لنا سمات معجمية ودلالية يمكن القول عنها إنها سمات نظامية لتعالقها مع الأصول البنائية والظواهر السياقية، وقد اتسقت هذه في المقارنات والاستدلالات اللغوية والبيانية وفي إيراد شواهد ونصوص منتقاة للاقتداء بها والسير عليها، وفي تعريفاته التي وقعت في محلها كعرض الحقائق والمجازات والاستعمال إلى حد غير وارد عند أصحاب المعجمات وباحثي الأسلوب، كقوله بمجاز المجاز، وهو تطور متفرد، من ذلك قوله في مادة (قسو):

حجر قاس: صلب وهو أقسى من الصخر.. ومن المجاز: قسا قلبه على، وفيه قسوة وقساوة، وقاسيُت الأمر: عاجلُ شدته... ومن مجاز الجاز، قول الشعبي لأبي الزناد: "تأتيننا بهذه الأحاديث قسية وتأخذها منا طازجة" وهذا كلام قسي كما يقال: كلام زائف وبهرج، ويوم قسي وليل قسي: شديد برد أو شدة ظلمة أو شر<sup>(٨)</sup>.

ومن هذه السمات الملحوظة عند الزمخشري أنه كان وثيق الصلة بالمؤشر الدلالي أي أن الإشارة واضحة وبأصبع الظاهر إلى صاحبها، وهي هنا (الإشارة الذاتية)، كما أن الإشارة الثانية وهي الإشارة العبارية تكون فيها الدلالة عامة حيث تنقل المعاني أو عييتها من الألفاظ على نحو يتناسب مع الأسلوب الخاص بالمؤلف، وهاتان الإشارتان الداليتان والأسلوبيتان تستمدان من النص وتنعان ضمن إشارته، لذا يلاحظ استمداده القرآني بينا، فضلا عن الأحاديث النبوية الشريفة، وهذا يشير إلى خبرته وتخصسه بالأساليب الراقية المبدعة والأنماط الدلالية الأصيلة،

كقوله في مادة (ثقل): قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (الزلزلة: ٢) أي ما في بطنها من كنوز وأموات<sup>(٩)</sup>.

أو كقوله في مادة (جري): والشمس تجري، والريح تجري، وجرت الخيل.. وسميت الجارية لأنها تستجري في الخدمة.. وفي الحديث: ((ولا يستجرينكم حتى لا تكونوا منه بمنزلة الوكلاء من الموكل))<sup>(١٠)</sup>.

ونطالع في مقدمة ابن خلدون تقويماً لعمل الزمخشري المعجمي والأسلوبي إذ يتميز هذا التقويم بأنه ينفذ إلى جوهر أصيل يقول ابن خلدون: "ومن الكتب الموضوعية أيضاً في اللغة كتاب الزمخشري في المجاز وسماه (أساس البلاغة) بين فيه

كل ما تجوزت به العرب من الألفاظ وما تجوزت به من المدلولات وهو كتاب شريف الإفادة<sup>(١)</sup>، ويرى الدكتور الداية أن جهد الزمخشري مرشح ليكون ركيزة في مشروع المصنف الدلالي العربي الذي يجمع تعليقات اللغويين والأدباء والفلاسفة والمتكلمين والفقهاء حول دلالات الألفاظ، وأنه مجال صالح للتطبيق على علاقات المجاز والاستعارة فضلا عما ذكره الزمخشري عن الكناية والمثل... ويطبق رؤيته هذه على بعض شواهد الزمخشري في أساسه، فيورد مادة (أذن): التي يقول الزمخشري فيها: "ومن المجاز أذن من الأذان إذا كان سمعة، وهي أذن وهما أذن، وخذ بأذن الكوز وهي عروته والأكواب كيزان لا آذان لها، ومضت فيه أذنا السهم، "وجاء فلان ناشرا أذنيه" أي: طامعا، و"جاء لابسا أذنيه" أي: متغافلا، وفي المثل: "أنا أعرف فلانا كما أعرف الأرنب وأذنيها" أي: أعرفه ولا يخفي علي كما لا تخفي علي الأرنب.

ويقف الدكتور محملا ما جاء في هذا النص على وفق أربع ملاحظ:

**الأولى:** علاقة المجاز المرسل الجزئية المتحولة إلى الكل بالتوسع، أذن سمعة وهي تماثل ما يدرج عادة في المشترك اللفظي مع "العين" عندما تدل على من يجمع الأخبار ويطلع على أحوال الخصوم والأعداء متحسسا.

**والثانية:** الاستعارة المعرفية وهي أذن الكوز وكذلك أذنا السهم.

**والثالثة:** مصادفة استعارة متحولة إلى قيمة معرفية ثم قيامها بدور الكناية في الدلالة غير المباشرة لقوله: جاء فلان ناشرا أذنيه ولابسا.

**والرابعة:** ما وجده في المثال من صفة في أذن الأرنب إذا عممت لتدل على كل ظاهر بارز وإن كان صاحبه يظنه خفيا، وذلك بالتطور الدلالي وحيوية

الاستعمال والقيمة الأساسية في هذا العرض هي أن المساحة الدلالية ليست محصورة في النصوص الأدبية وإنما تتسع لكل وجوه الحياة ولأبناء اللغة عامة<sup>(١٢)</sup>. وهذا الجانب الذي أشار إليه الدكتور الداية هو جانب كامن في نصوص الزمخشري وضحه في مقدمته وطبقه في أمثله ولكن اختلف بينهما الاستخدام الذاتي للأساسي الدلالي، أو بمعنى أعمق كان التأطير العام للتركيب الكلي الناتج من المفاعلة والممازجة بين المعطيات البنيوية على صلة وثيقة بالتأصيل والمنابع عندهما، وإن المداخل الذاتية في استخدام معطيات اللغة هي التي أفرزت بينهما جنية أسلوبية مختلفة، لذا قال الزمخشري بعد ذكره ما جاء به كتابه من خصائص.. كتخير ما وقع في عبارات المبدعين.. والتوقيف على مناهج التركيب والتأليف... والاستكثار من نوابع الكلم.. وتأسيس قوانين فصل الخطاب.

فمن حصل هذه الخصائص كان له حظ من الإعراب الذي هو ميزان أوضاع العربية ومقياسها... وأصاب ذروا من علم المعاني، وحظي برش من علم البيان، وكانت له قبل ذلك كله قريحة صحيحة وسليقة سليمة فحل نشره وحزل شعره<sup>(١٣)</sup>.

### الخاتمة:

إن مثل هذه الخطى الرائدة تعد بحق رافدا لغويا أصيلا، ومعينا دلاليا ثراء، للدارس والمتأمل في علم اللغة الحديث لما لها من أسس راسخة في التدليل، ومزايا نافذة في التأويل، أخذت أبعادها من عقلية الزمخشري الفذة وذهنه المتوقدة، إذ استطاع بهما أن يخلق بالدرس المعجمي من ساحته التفسيرية الضيقة إلى قضايا معنوية ممتدة في الكشف والإحالة والتصوير.

الهوامش والمراجع:

- (١) مشكور العوادي، الدكتور، مقدمة أساس البلاغة، الطبعة ٢ بيروت- لبنان، ١٩٩٣ ص:٦
- (٢) المرجع السابق، ص:٧
- (٣) المرجع السابق، ص:٧
- (٤) مشكور العوادي (الدكتور): الأسلوبية عند الزمخشري، ص:٤
- (٥) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي، أساس البلاغة، مادة (عبأ) ص:٤٠٦
- (٦) الزمخشري المصدر السابق، مادة (أبد) ص:٩
- (٧) الزمخشري، المصدر السابق، مادة (ترس) ص:٦٢
- (٨) الزمخشري، المصدر السابق، مادة (قسو) ص:٥٠٧
- (٩) الزمخشري، المصدر السابق، مادة (ثقل) ص:٧٤
- (١٠) الزمخشري، المصدر السابق، مادة (جرى) ص:٩١
- (١١) ١١- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، الطبعة ٣ ج١ ص:٣٥٤
- (١٢) ١٢- الدكتور الدايدة، علم الدلالة العربي، الطبعة ٢ بيروت لبنان، ص:٢٢٨-٢٢٩
- (١٣) الزمخشري، المصدر السابق، ص:٨.